واقع تعليمية اللغة العربية في التعليم الابتدائي في الجزائر

د. م. عبد المجيد طريباق

تقديم:

لقد شهد القرن الماضي على الخصوص اهتماماً نوعياً بقضايا البيئة، وبدأت تشكل فرعاً معرفياً مستقلاً بذاته بعد أن كانت سارية في النسيج العلمي والثقافي العام للمجتمعات، وهذا يجعل التناول العلمي لمشاكلها أمام محكّ التداخل المصطلحي الشديد بين العلوم والتخصصات والمناهج والتعريفات، ويفرض على كل لغة أن تعرّف المفاهيم والمصطلحات البيئية على شاكلتها.

وبجانب ذلك توسّع المعنى اللغوي للبيئة ليشمل المنزل الكبير للإنسان بتضاريسه ونباته وحيوانه، ومكوناته من العناصر السائلة والغازية والضوئية، والموجات الصوتية وتيارات الطاقة، إلى جانب الأنظمة والتوازنات التي تحكم كل ذلك، ثم إلى البيئة المشيّدة على يد الإنسان من مدن وغيرها. وصار يغطي في النهاية الأوضاع التقنية والتشريعية والثقافية وكل ما له علاقة بحياة الإنسان من موجودات أرضية وفضائية، من باطن الأرض إلى طبقة الأوزون وما فوقها من آفاق كونية، وهكذا ومنذ سنة ١٩٧٢ عرّف المؤتمر العالمي للبيئة الذي انعقد في استوكهولم البيئة بأنها «كل شيء يحيط بالإنسان» ١تقرير برونتلاند

وتعتبر قضية المصطلح في العلوم البيئية أمرا مستعصيا على الاستقلال عن غيرها من العلوم المادية والإنسانية على حدّ سواء. وقد يتعدى ذلك إلى المجالات الثقافية الفلسفية والتصورية عن الحياة والوجود وعلاقة الإنسان بالكون، خصوصاً عندما نبحث في موضوع أخلاقيات العمل البيئي، والتربية البيئية، والحوافز الذاتية للحفاظ على الموارد وغيرها. ورغم كل هذا فقد تمكنت العلوم البيئية من تبنّي بل وإنتاج تعريفات ومصطلحات خاصة بها، تَفرض على كل متناول أن يقف عندها، ويستفيد من دلالاتها بالقدر الذي يسمح به تخصصه ولغته، ويتكيّف مع مستوى استجابتها لما يطرحه من إشكال. ويعتبر البحث اللغوي في المصطلح أهم مدخل لفك مشاكل التداخل القانوني والمؤسساتي والقطاعي في تدبير شؤون البيئة، والذي صار أبرز مواضيع الساعة على الصعيد العالمي.

ومنذ أن أصبح مصطلح Environment في اللغة الأجنبية يعني «مجموعة الظروف والمؤثرات الخارجية التي لها تأثير في حياة الكائنات بما فيها الإنسان»، وصار يحمل دلالة اصطلاحية على المحيط الذي يعيش فيه الأحياء عامة والإنسان خاصة، أطلق في اللغة العربية لفظ البيئة اصطلاحاً على ذلك المعنى، حيث أصبح مفهوما متداولاً بين أهلها، خصوصاً لما أصبحوا مشاركين في الفكر البيئي الحديث.

ولهذا فإن ما نودّ عرضه في هذا البحث حول المسألة اللغوية والمصطلح في العلوم البيئية، يتعلق بأمرين أساسيين: الأول يتعلق بالإشكالات التي يطرحها المصطلح البيئي من سعة في المفهوم، وتداخل أو تكامل مصطلحي بين مختلف فروع العلوم البيئية، وانعكاس ذلك على تدبير البرامج والسياسات البيئية، ونقل التكنلوجيا، وتنفيذ الخطط المشتركة مع الأطراف الدولية، والتي تُنفّذ اليوم في أغلبها عبر تقارير باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ثم تترجم بعد ذلك باحتشام إلى الحرف العربي. والثاني يتعلق بالبعد الحضاري للمسألة المصطلحية في مجال البيئة وما يمليه من ضرورات البحث والتأصيل لرد معالم الشهود الحضاري للأمة إلى نصابها، واستعادة الإمامة العلمية تصورا وبحثا وتطبيقا وعرضاً للنماذج.

فالإشكال إشكالان، واقتحام عقبة كل منهما ليس بالسهل اليسير، ذلك لأن

الأول يستوجب امتلاك الإبداع العلمي لتحقيق الاستقلال المفهومي المطلوب، والتفوّق الدلالي للّغة الأم، مقابل التفوق التكنولوجي عند الآخر الذي يلد المصطلحات ويستأثر بعقيقتها. والثاني يتطلب التصور الحضاري الواضح، من الناحية الفلسفية والثقافية للإشكال البيئي عموما، والذي يجعل تشخيص الظواهر البيئية وطرح الحلول لها، ينبعان من أصل واحد يحيط بأسباب التدهور البيئي ومجالاته وسبل الخروج منه.

إن الصراع على موارد الأرض اليوم قد استصدر مصطلحات لغوية مبهمة واسعة المفهوم، تنتهك باسمها الحدود والأموال والأعراض، بل إنسانية الإنسان نفسه، ويصعب الردّ عليها لضمور دلالتها الميدانية في الأعراف الدولية نفسها، حيث صار يُشمّ معناها ولا يُفهم، ويجعل الجميع يخرس أمام مكيال معانيها اللغوية، ويركن إلى أمن لغوي صوري، إخلاداً إلى الأرض في ظل السيطرة المصطلحية المستدامة للمختبرات اللغوية للثقافات المهيمنة. ويعد مجال البيئة أخطر مجال يمكن ترشيحه مستقبلا لاستصدار مصطلحات جديدة، تسمح بالهيمنة باسم مقاييس السياحة الدولية، أو الحفاظ على التنوع البيولوجي، أو تلويث المجالات الطبيعية المشتركة دوليا، أو ربما التدخّل دفاعا عن الأمن البيئي والحقوق البيئية للشعوب، كما يدافع اليوم عن حقها في التعبير والكلام والتصويت. وتُثبت الدراسات الاستراتيجية أن النزاعات البيئية بين الدول ستعرف تصاعدا بسبب المياه الجوفية والأنهار الحدودية وتداخل مكونات المجال البري والبحري والجوي على السواء، والنفايات العابرة للحدود، بجانب عدم القدرة على الوفاء بالتزامات المعاهدات الدولية في هذا الشأن.

إن هذا البحث محاولة من أجل المساهمة العلمية في تخطّي عتبة الصمت عن التشويه الوراثي للنّسل اللغوي في عالم الخطاب البيئي، والذي لا يقلّ جرما من الصمت عن المختبرات المعروفة والسرّية للهندسة الوراثية التي تعيث فسادا في خلقة النوع البشري وطعامه من نبات وحيوان، وليست قضية الاستنساخ سوى أحد مظاهرها التي طفت على السطح في السنوات الأخيرة. كل هذا مع العلم بأن الخطاب البيئي مهما حاولنا حصره في القضايا المادية للخلل في التوازنات البيئية، فإنه ينزلق بسهولة نحو الأبعاد الإنسانية والقانونية والأخلاقية و الثقافية والتصورات العقدية للحياة، ومسؤولية الفرد أمام نفسه ومجتمعه ومستقبل الأجيال اللاحقة. لقد ظهرت اليوم التربية البيئية وعلم النفس البيئي، وأخلاقيات العمل البيئي، وعقدت القمم والمؤتمرات، وتأسست الوزارات والحركات والأحزاب والجمعيات البيئية، وصار لمبادئها وقع على الساحة الدولية. ولهذا فإن أي تناول ميداني جاد لقضايا البيئة، لا يمكنه أن يتم إلا في إطار الشمول التصوري الحضاري للّغات والثقافات بكل أبعاده التي تراعي التداخل الدلالي القائم في مجال فلسفة العلوم بين البيئة والتنمية وغيرهما من التخصصات.

١- علم البيئة : النشأة والنموّ المخضرم بين التخصصات

لقد اهتم الإنسان بما حوله من يوم سواه الله ونفخ فيه من روحه وعلّمه الأسماء كلّها. وكان تصنيف الكائنات من حوله واضحاً في ذهنه يميّز به بين ما يقرُب وما لا يقرُب مما تصل إليه يداه، بدءاً من أكل شجرة الجنة، إلى تقديم القربان عند ابن آدم الأول، أو الاستفادة من الدرس البيئي للغراب الذي علّمه كيف يواري سوأة أخيه في التراب.

ولن يدّعي أحد أن علم البيئة لم يظهر إلا في القرن التاسع عشر مع الألماني هيجل الذي استعمل لأول مرة سنة ١٨٦٨ لفظ التبيؤ (Ecology) للدلالة على العلم الذي يدرس العلاقة بين الحيوان وبين المكونات العضوية في البيئة المحيطة به. فقد دلّت الدراسات التاريخية على أن المحميات الطبيعية عرفت قبل الميلاد تحت حكم بعض ملوك الهند، وما كانت قضية الحفاظ على موارد الطبيعة وعناصرها لتغيب بشكل أو بآخر عن الحضارات الفرعونية بمصر مثلاً، والحضارات الزراعية فيما بين النهرين أو في مشاريع الرّي لدى الرومان في العصور الغابرة.

و إذا كان العلم بالبيئة وما يمكن أن تعطيه قديم قِدم الإنسان، والوعي ببعض الآثار أو المخلّفات من جراء استغلالها محسوسٌ بقدرٍ ما لدى بني

البشر منذ فجر التاريخ، فما الذي جدّ في الأمر بعد الثورة الصناعية الحديثة؟ وكيف صار همّ البيئة علماً يحاول الاستقلال بذاته؟ وأين وصل أمر هذا العلم اليوم في التميّز عن غيره، وفرض نفسه على محافل البحث العلمي وعلى السياسات التنموية عبر العالم بمختلف لغاته وثقافاته؟

أ - نشأة علم البيئة كاعتبار لأثر عيش الإنسان في الأرض

إن الجذر الثقافي والعقدي لموضوع البيئة جعله يزداد مع الإنسان منذ أول بلاغ كوني ينبئ باستخلافه عندما أخبر الله تعالى ملائكته بقوله «إني جاعل في الأرض خليفة»(البقرة:٣٠). ولازال هذا المبدأ، مبدأ الصلاح والفساد في الأرض، قائما حتى اليوم عند التفكير في إحداث مدن أو مستوطنات بشرية حول الموارد المائية أو الغابوية، أو السواحل أو مناطق الرعي والزراعة، أو المنشآت السياحية أو الصناعية.

ويحكم هذا الاعتبارَ البيئيَ لأنشطة الإنسان تقديرٌ حاصلٌ بالانطباع، بحكم العلم أو التجربة، بأن العيش الإنساني لا بدّ له من أثر بيئي قلّ أو كثر كما سنرى في الفقرات اللاحقة من هذا البحث. لقد اقتضت حكمة الله في خلقه أن يكون الإنسان كائنا بيئيا في خلقته وحاجاته المادية إلى الغذاء والتنفّس وإلقاء الفضلات، والموت وترك الجسد العضوي ليدفن في الأرض ولو بعد حين.

وهذا النوع من العلم البيئي هو اعتباري بحكم طبيعة البيئة والمبوّءِ فيها في أصل الخلق، والعلاقة والتفاعل والأثر المتبادل بينهما. ولن ينتهي هذا النوع من الأثر البيئي وضرورة العلم به ولو تقدّم العلم مهما تقدم، أو تقلّص عدد البشر مهما تقلص، أو قلّت حاجات الإنسان وقنع بالقليل مهما قنع، وذلك لمجرّد أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويستغل موارد الأرض، فإن له أثراً في البيئة.

وليس المقصود هنا أن هذه المقدمات العلمية النظرية تدعو للاستسلام لواقع الأثر البيئي في الخلق، أو تعفي الإنسان من المسؤولية العلمية بالاهتمام بدرس وتصنيف الموجودات من حوله، والعلاقات البيئية بينها وبينه، ليحسن تدبير التنمية والعمران والخلافة في الأرض التي من أجلها خلق النوع البشري.

ب – علم البيئة كتصنيف للكائنات الحية وغير الحية

اهتم الإنسان بتعريف الكائنات من حوله وتصنيفها في عالم النبات والحيوان والجماد منذ القدم. وفي التاريخ الطبيعي نجد مؤلفات تعود لما قبل التاريخ في الأدبيات والرحلات وتاريخ الزراعة الذي يصل الآن إلى حوالي ١٠,٠٠٠ سنة.

وفي هذا الجانب يذكر أيضا كتاب الطبيب اليوناني أبقراط (٣٧٧ ق.م) والذي ألفه بعنوان « عبر الأجواء والمياه والأماكن»، وفيه إشارات إلى تأثير هذه البيئات على الحيوان والإنسان، وقد كان لأرسطو طاليس (٣٢٢ ق.م) وتلاميذه دور مهم في لفت الانتباه إلى العديد من الأفكار البيئية ضمن المؤلفات المتعلقة بالتاريخ الطبيعي، وتصف الحيوانات وعاداتها وعلاقاتها ببيئتها، وقد بدا ذلك واضحا في كتاب «الحيوان» لأرسطو. وتوسّع هذا التصنيف عبر التاريخ في علوم البيولوجيا والجيولوجيا والصيدلة والطب والزراعة.

ورغم أن هذه التصنيفات للكائنات الحيّة بقيت حبيسة التخصصات، ومنفصلة عن بعضها، فإنها أدت إلى ظهور مصنّفات في عالم النبات والصيدلة، وفي عالم الحيوان أيضا. ويشهد تاريخ الحضارة الإسلامية، بالإضافة إلى إرثها في الطب والعمران والزراعة وغيرها، مؤلفات عدة تتناول مكونات البيئة. ونورد هنا على سبيل المثال ما ذكره د. عبد المجيد النجار٢ بقوله : لعل أبرز المؤلفين في علم الحيوان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) الذي أثبت في كتابه الحيوان التأقلم الحيواني بالبيئة، كما أشار إلى نظرية المكافحة الحيوية باستعمال بعض الحيوانات في القضاء على بعضها. ومنهم زكريا بن محمد القزويني (ت ٦٨٢ هـ) الذي لاحظ في كتابيه : « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» و « آثار البلاد وأخبار العباد» تأثير البيئة على الحيوان، ودرس العلاقات بين الحيوانات، وأثبت فكرة المشاركة والتكافل بينها، تلك الفكرة التي دعمها فيما بعد محمد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨ هـ) في كتابه « حياة الحيوان «. وقد كان مسلمة بن أحمد المجريطي (ت٣٩٨ هـ) من أول من استعمل كلمة البيئة بالمعنى الاصطلاحي وأثبت تأثيرها في الأحياء وذلك في كتابه

«في الطبيعيات وتأثير النشأة والبيئة على الكائنات الحية»، وتحدث فيه عن مراتب الهيمنة بين الحيوانات. ومن أبرز المؤلفين في علم النبات أبو حنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ) الذي صنف النباتات في كتابه «النبات» وشرح علاقاتها ببيئاتها. ومنهم عبد الله بن أحمد بن البيطار (ت٦٤٦هـ) الذي درس في كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، النباتات في مختلف البلاد ووصفها بما يهيئ لتصنيفها بدقة. وغير هؤلاء الذين ذكرنا من علماء الحيوان والنبات المسلمين كثير، ساهم كل منهم بقسط في التهيئة لعلم البيئة الحديث. ويعتبر علم التصنيف النباتي والحيواني أساسا لتناول العلوم البيئية في العصر الحديث، والذي انصبّ على دراسة العلاقات بين الكائنات الحية وغير الحية على السواء.

ج – تاريخ البيئة موزعا بين التشريعات والتقنيات القطاعية

هذا النوع من العلم بالبيئة أيضا معروف لدى الإنسان منذ فجر التاريخ. وكان له تراكم للمعرفة بخاصيات مكوّنات المحيط من ماء وتربة، ونباتات زراعية أو طبية، ومعادن وطرق انصهارها وصياغتها، وأنواع مواد البناء واللّباس والطبخ وغير ذلك.

ومن خلال هذه المعرفة بالبيئة وخاصياتها المادية والكيميائية والحيوية، بنى الإنسان حضاراته عبر التاريخ، وشيّد مدنه وسهر على نظافتها، وبنى مستشفياته وفنادقه، وأوصل المياه إلى البيوت والحدائق. ولا يتسع المجال هنا لاستعراض ما تزخر به حياة الأمم والحضارات قبل الإسلام وبعد مجيئه، بل قبل التاريخ، من تناول تقني للمكونات البيئية وحفاظ عليها مما تضيق به الموسوعات في هذا الشأن. وهناك العديد من المؤلفات الإسلامية في الحسبة وفي النوازل وفي الفتاوى تعرضت لمواضيع التلوث البيئي بالمدن بالأدخنة والفضلات والمياه العادمة الناتجة عن الدباغة والجزارة والصناعة التقليدية عموما. فظهرت كتب كأحكام البنيان لابن الرامي، وكتاب الحيطان وكثير من الكتابات والآراء الفقهية العمرانية كالتي جمعها الدكتور محمد عبد الستار عثمان في كتابه» المدينة الإسلامية»٣. وقد تطور هذا الحضور لعلم البيئة في عالم الثقافة والمهن حتى صارت الهندسة البيئية جزءاً من التكوين في الهندسة المدنية والصناعية والغذائية وفي التصاميم العمرانية والسياحية.

د – نشأة علم البيئة المتداول اليوم: علم العلاقات البيئية

في العصر الحديث أخذت الثقافة الغربية المبادرة العلمية في الفكر البيئي، مستفيدة من التراث العلمي الإنساني السابق في هذا الشأن، وأرست مصطلحات وأسساً ومناهج لتناول قضايا العلاقات بين الكائنات الحية ومحيطها، وتوالت التصنيفات والدراسات فحدّدت النظم البيئية، وشرّعت حولها القوانين والمؤشرات، وظهرت مؤسسات علمية وإدارية ومنظمات تختص بالشأن البيئي. ونستعرض هنا بعض المحطات التاريخية لتطور هذا العلم ونشأة مصطلحاته.

- في ١٨٦٦ طلع مصطلح البيئة (Ecologie) على يد العالم الألماني ارنست هيكل (Ernest Haekl) ليعني «العلم الذي يدرس عموما العلاقات بين الكائنات الحية والعالم الخارجي المحيط بها والذي يشمل بشكل موسع كل ظروف عيشها».
- في سنة ١٨٧٧ ظهر مصطلح كتلة الأحياء أو مجموعة الأحياء على يد العالم موبيوس (Mobius) وأبان على وجود علاقات خاصة داخل النوع وبين الأنواع بعضها البعض وأدى ذلك إلى تعريف السلاسل الغذائية، حيث تتغذى الكائنات ببعضها البعض في نظام متوازن موزع بين النباتات وآكلات النبات وآكلات اللحوم والتي تتغذى ببقايا الكائنات الحية، مع تداخل في الأصناف يطول شرحه في هذا المقام.
- في ١٩٣٥ أثارت نتائج هذا الاهتمام بعالم العلاقات بين الحي والميت أو الأحياء ومحيطها (The inanimate and the animated) انتباه عالم النبات البريطاني أرتور ترانسي إلى أنماط سريان المادة والطاقة بين النظم البيئية (Ecosystems). وأبان أن لكل نظام بيئي خصوصياته

في تصريف المادة والطاقة في تآزر وظيفي بين كتلة الأحياء نباتا وحيوانا (Biocenose) ومحيطها الحيوي (Biotope).

وتوالت الدراسات عن النظم البيئية كحصيلة لسريان المادة والطاقة فيها، وتفاعلها فيما بينها، فتم التوصل إلى أن الكوكب الأرضي كله منظومة واحدة تتفاعل فيها النظم البيئية فيما بينها فتشكل مجموعات نظم تسمى (Biomes) وتنخرط جميعها في ما يسمى المحيط الحي للكوكب أو Biosphere مع خاصية أساسها التنوع في الأحياء أو Biodiversity.

وقد استعمل لفظ Biosphere في مخاض الدراسات السابقة حول العلاقات البيئية من طرف العالم النمساوي ادوارد سويس Eduard Suess سنة ١٨٧٥ وهناك من ينسبه إلى عالم الجيولوجيا الروسي فلاديمير افانوفيتش فرنادسكي في ١٩٢٩. (Vladimir Ivanovitch Vernadsky).٤

وتحول علم البيئة إلى ما يسمى علم البيئة الشامل «المعولم « أو علم المحيط الحي والتنوّع الإحيائي Global Ecology of biosphere and biodiversity) والذي تم تبنّيه عبر قمة ريوديجانيرو بالبرازيل سنة ١٩٩٢.

وقد كان من أهم توصيات القمة اتفاقية حماية التنوع الإحيائي، حيث تم تصنيف حوالي مليونين من الأنواع الحية، منها مليون ونصف في عالم الحيوان تشكل الحشرات فيها حوالي مليون، ويبقى نصف مليون نوع موزعا بين النبات والكائنات الدقيقة Micro organisms—.

هـ – علم البيئة يستعصي على الاستقلال بذاته

استدل العلماء الذين دافعوا عن موضوع البيئة كعلم قائم الذات بأن الشروط الثلاثة المطلوبة في أي علم وهي الموضوع والمناهج والنتائج قائمة في علم البيئة، وقسّموا مجال اهتمام هذا العلم إلى قسمين:

- علم البيئة الأساسي ويهتم بدراسة العلاقات بين الكائنات ومحيطها.
- علم البيئة التطبيقي: يدرس النظم وتصنيفاتها.

وقد تأثرت هذه المدرسة بتاريخ ونتائج علم التبيّؤ المنصب على العلاقات بين الكائنات دون وضعه في الشمول المطلوب الذي يضع الإنسان في المحور ويراعي التدخل الميداني بين علم البيئة وبقية العلوم كالكيمياء، والفيزياء والفلك والطب والهندسة المدنية وهندسة الإحياء وعلم التربية والفلسفة والقانون والاجتماع وغيرها.

وتتبيّن صعوبة تميّز موضوع البيئة واهتماماته عن غيره، من كون تأطيره مؤسساتيا من طرف الوزارات ظلّ يعانى من هذا التداخل في الاختصاصات. لقد التحقت معظم القطاعات الوزارية بالموجة البيئية في مجال الصحة والتعليم والسياحة والثقافة والفلاحة والغابات والصيد البحري، وتبعتها نبرة الجماعات المحلية والبلديات في جمع النفايات وإحداث المناطق الخضراء الحضرية وهلم جرا. وقد ركبت الموجة أيضاً الحملات الانتخابية، وتشكلت أحزاب بيئية وجمعيات ومؤسسات تتكلم كلها عن البيئة وتتوزع كلها على القطاعات التنموية التقليدية. وقد أورد صاحب كتاب المدخل إلى البيئة البشرية ميشال باربو Michel Barbault في» مذكرة حول علم البيئة بفرنسا» : إننا ننتقل الآن من علم بيئة ثابت وتفسيري إلى علم بيئة متحرك مندمج ومتنبئ. إننا في الحقيقة نتحول إلى علم بيئة تطبيقي.»٥

و – علم البيئة أبو العلوم: عودة إلى علم « البيئة البشرية»

لقد انطلق علم البيئة من توقع آثار عيش النوع البشري في الأرض واعتبارها، وتعرف على الكائنات المحيطة بالإنسان في عالم الحيّ وغير الحيّ، ودرس العلاقات فيما بينها، واهتدى إلى وجود نظم بيئية متوازنة وجد بينها من الترابط ما جعله يعتبر الأرض كلها نظاما بيئيا واحدا متداخلاً، ولكنه نسي استصحاب الإنسان في هذه الرحلة العلمية الشيّقة، ودمجه ككائن بيئي تخدمه هذه النظم وتتأثر بأساليبه في الاستفادة من هذه الخدمة. وفي هذا يقول د.نزار دندش بأننا « رغم حلول ما يعرف بالكارثة البيئية، في هذا القرن، فإن هذه التغييرات الجذرية في بيئتنا لم تترافق حتى الآن مع التغييرات الموازية المطلوبة في مفاهيمنا البيئية. فحتى الآن لا يوجد وللأسف علم

متكامل يعالج بشمولية قضايا البيئة كما لا توجد تشريعات دينية مفصّلة مستوحاة من تعاليم الأديان السماوية تحرم اضطهاد البيئة»٦

إن جميع فروع العلم المعروفة تتناول المسائل البيئية بشكل مجزّإ، كل موضوع على حدة، في حين أن المطلوب هو التعاطي معها على أنها مسألة متكاملة يلعب الإنسان فيها الدور المحوري. ذلك أن التكنولوجيا تُطوّع الطبيعة لخدمة الإنسان، وتحاول تكييف جميع الظروف لمصلحته، ولكنها لا تأخذ على عاتقها ردع الإنسان.

إن العلماء بشكل عام، الفيزيائيين والكيميائيين مثلاً، يدرسون الطبيعة بمعزل عن تأثير الإنسان عليها. وكذلك العلوم الاجتماعية التي تتخذ من الإنسان محوراً لدراستها، تشدد على تأثير الطبيعة على الإنسان لا العكس. أما علماء الطبيعة الذين تقع الطبيعة ضمن اهتمام دراساتهم وأبحاثهم فإنهم يكرهون الاعتراف بالتأثيرات المعقدة من قبل الإنسان على الطبيعة، لأنهم علماء أشياء لا علماء بشر. ونجد أن الفرعين المفترض أن يكونا الأقرب إلى دراسة البيئة هما فرع الإيكولوجيا وفرع الجغرافيا.

فالإيكولوجيا، أو علم التبيؤ، هو في الأصل علم يدرس علاقة الكائنات الحية ببيئتها، لكنه اقتصر على دراسة علاقات الأنظمة بعضها ببعض، وتناول مكان الإنسان في النظام الإيكولوجي بشكل نادر، ولم تبدأ دراسات الإيكولوجيا البشرية بالتطور إلا في الربع الأخير من القرن العشرين.

أما الجغرافيا فهي الفرع الأكثر اهتماما بمسألة البيئة لأنها تدرس علاقة الإنسان بمحيطه، لكن هذا الفرع العلمي يتمادى في التعميم، ويعاني من عدم ملامسة التفاصيل، كما يعاني من انتقاص في القيمة العلمية لدى الآخرين، تضعف قدرته على إيصال نداءاته إلى مسامع رجال القرار في الدول.

إن دراسة القضايا البيئية تتطلب تضافر جميع فروع العلم، لأن الإنسان يستعمل ويتدخل في شؤون الطبيعة بشكل واسع جداً من الذرّة إلى المجرّة، فقد فجر الذرة وصنع القنابل الذرية، وأطلق إشعاعاتها، ونشر عناصر الكيمياء في البحر والبر والجو، وخرّب التوازن البيولوجي من قعر البحار إلى طبقة الأوزون، وغيّر تضاريس الأرض، وهو الآن يرسل إشارات وموجات الراديو إلى مختلف أرجاء الكون.»٧

ويبقى السؤال الأخير قبل الخوض في البعد اللّغوي للقضية، هل يصطف علم البيئة في مجال فلسفة العلوم، كعلم بجانب العلوم الأخرى ؟ وهل يسمح بذلك وضعه الأفقي الذي يصُول ويجُول فوق كل التخصصات؟ وقد يشبه هذا أيضاً تساؤل بعض الناس، هل يصطف الإسلام كدين ورسالة للعالمين، بجانب الاجتهادات الاجتماعية والتنموية في حزب من الأحزاب السياسية؟ أو هل يصطف مفهوم العبادة الشامل كشعيرة بجانب الشعائر فرضا كانت أو سنة؟ إن علم البيئة ذو أبعاد فلسفية وتصورية ترقى فوق الجوانب التقنية لمناهج العلوم. وإن طاقة الوعاء المنهجي في استيعاب النظرية العلمية تحددها اختصاصات العلم وأهدافه التي يقوم عليها وترسم معالمه.

وإذا كان موضوع البيئة من الشمول بحيث يدخل في كل علم ويحكم كل فهم، فإن محاولة حشره في قناة علمية ضيقّة خاصة، يكون ضرباً من العسف المنهجي الذي ينتظره الفشل ولو بعد حين. ولهذا فإن التأسيس لهذا العلم يبدأ من حلبة المعارك اللغوية للمصطلحات والمفاهيم الموحِّدة للإشكالات البيئية بتعدد مجالاتها وآثارها وتخصصاتها.

٢ – الأبعاد اللّغوية لقضايا البيئة

أ – البيئة في اللغة

البيئة لفظ مألوف في اللغة لكنه أصبح مع الزمن يحمل مدلولا جديدا يبتعد به عن بعده اللغوي البسيط ليحمل معنى اصطلاحيا تدور حوله معالم علم جديد مستقل بذاته.

والبيئة لغة من باء إلى الشيء يبوء بمعنى رجع إليه، وقد أطلق هذا اللفظ على معنى المنزل الذي ينزل فيه الإنسان، ولعل ذلك كان لمناسبة أن منزل الإنسان معاده الذي يرجع إليه بعد كل غدوة في سبيل قضاء شؤونه، فأخذ معنى النزول في المكان من كثرة الرجوع إليه وتواليه. والمنزل المقصود بالبيئة في هذا الإطلاق اللغوي هو أوسع من المعنى الضيق الذي يطلق على المنزل بمعنى المسكن، إذ هو يشمل ما حوله من المكان أيضا، فبيئة القوم

هي موضع نزولهم من واد أو سفح جبل٨، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ) (الحشر:٩) أي اتخذوا لهم الدار وهي المدينة المنورة بيئة أي منزلا، والمدينة أوسع نطاقا من مجرد المنازل التي يسكنها الناس.٩

وقد تم تبني هذا المعنى اللّغوي للبيئة ليحمّل معنى اصطلاحيا يعني منزلا للإنسان أوسع وأكثر شمولا من ذلك المعنى اللغوي، فأصبحت البيئة تعني المنزل الكوني للإنسان الذي يشمل كل ما له علاقة بممارسة وجوده كإنسان.

ويقول الدكتور محمد أمين في مقال له عن البيئة ومشكلاتها الراهنة من منظور إسلامي بأن البحث عن توقف الدين عند البيئة يستدعي أن نتعرف، أولا، على معنى البيئة تمهيدا لمعرفة الموضوع الذي نحاول التعرف على أحكامه، فنقول: البيئة اسم مشتق من فعل باء يبوء، ومنه قوله تعالى:(وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) (البقرة:٦١) ، وهي بمعنى حملهم للغضب والانصراف به.

ومنه قوله تعالى حكاية عن ابن آدم: (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ) (المائدة:٢٩)، أي بقتلي تحمل إثمي وإثمك وتنصرف بهما.

وتأتي بمعنى الإنزال والإسكان، كما في قوله تعالى :(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) (يوسف:٥٦)، أي ينزل فيها حيث يريد ويسكن حيث يشاء.

ومثله قوله تعالى : (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) (الزمر:٧٤)

ومنه معنى الحديث: (من طلب علماً ليباهي به العلماء فليتبوّأ مقعده من النار)، أي فلينزل مقعده في النار ويسكن فيه. ومنه الحديث النبوي (من كذب علي متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار)، وقد يأتي فعل «باء» بمعنى رجع، وقد سمي البيت مباءة للرجوع إليه.

وجاء في القاموس المحيط: « بوأه منزلا: بمعنى أنزله كإباءة، والإسم (البيئة)، وهي تعني المنزل، وقد تأتي بمعنى الحال، فيقال: البيئة السياسية والبيئة الجغرافية وقد تأتي بمعنى المحيط.١٠

ويقول الدكتور نزار دندش : « قد تكون كلمة بيئة، في اللغة العربية، مشتقة من فعل بوأ، فعبارة «بوأ الإنسان بيتا» تعني هيأه أو جهزه، وعبارة تبوّأ الإنسان منزلا» تعني نزله.

لكن لا يمكن الاعتماد على النظر إلى جذر الكلمة العربية من دون ربطها بالمصطلحات الغربية المرادفة لمعاني الوسط، المجال، المحيط، البيئة، Environment؛ والذي يشمل البيئة الطبيعية والمشيدة، البيئة النفسية، الاجتماعية، الثقافية. والحديث المنهجي عن البيئة يعني تناول العلاقة القائمة بين الإنسان ومحيطه أكثر مما يعني درس الطبيعة المحيطة بالإنسان وتأثيرها على نفسها.»

– لفظ التبيؤ:

ظهر في البداية مفهوم الإكولوجيا (التبيؤ Ecology) كأحد فروع علم الأحياء على يد العالم الألماني هيجل Ernst heachel سنة ١٨٦٨ الذي استعمل هذه الكلمة لأول مرة. ولم يفرض علم الإيكولوجيا نفسه كعلم مستقل إلا في القرن العشرين. ويتركب إسم الإيكولوجيا من كلمتين من أصل يوناني هما «ايكوس Oikos » بمعنى السكن أو البيت و « لوكوس Logos » بمعنى علم أو خطاب. وتشعب علم التبيؤ أو الإكولوجيا مع تراكم المعلومات مما أدى إلى ظهور الإكولوجيا الحديثة في الثلاثينيات من القرن الماضي. وينقسم البحث الإيكولوجي إلى أربعة مستويات في النظام الإحيائي:

- إيكولوجية المتعضي : (Auto-ecology، Ecology of organisms) وتدرس خاصيات الكائن الفرد (حيوان أو نبات) وتأثره بالعوامل الطبيعية الخارجية (مناخ، تربة، دورة مائية ...)
- إيكولوجية المجموعات (Ecology of populations) وتهتم بدراسة الخاصيات الجماعية لنوع معين (التزايد العددي، التنافس، الهجرة ...)
- ايكولوجية الفئات الحية (Ecologie des communities) وتتوجه لدراسة العلاقات في النظام البيئي أو المحيط الحيوي ككل بين المكونات الحية وغير الحية وتأثرها ببعضها البعض.
- إيكولوجية المحيط الحيوي (Ecology of biosphere) وتعمل على الأخذ بعين الاعتبار التداخل بين النظم البيئية للكوكب الأرضي والفضاء

الكوني بصفة عامة.

ويعتمد علم التبيؤ على نتائج البحوث التي تعرفها العلوم الأخرى حيث يستفيد كم منهجيات العلوم الفزيائية والكيميائية والنماذج الرياضية في تحليل النظم البيئية وغير ذلك من التقنيات كما يسمح بتقدير مدى تحمل النظم البيئية المختلفة للتغيرات السلبية الطارئة عليها مثل قدرة المياه على التخلص من الملوثات العضوية عن طريق التصفية الذاتية للمياه Self purification . ولا يزال علم التبيّؤ الحجر الأساس في كل دراسة بيئية مهما كان نوعها لأنه يسمح برسم الوضع الطبيعي للنظام البيئي قبل حدوث التغيرات عليه.

ب – البيئة وقضية المصطلح

تتميز العلوم البيئية بنسبية وتنوع قضاياها وصعوبة تحديد مداها كمّاً وكيفاً، زماناً ومكاناً، تصنيفاً وتعريفاً. فتنوُّع القضايا والآثار البيئية الواقعة منها والمحتملة وتعدُّد العوامل الطبيعية والبشرية المؤثرة والمتأثرة بالتفاعلات الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية والنفسية وغيرها يجعل التناول العلمي لمشاكلها أمام محك التداخل الشديد بين التخصصات والمناهج والتعريفات.

وتعتبر قضية المصطلح في العلوم البيئية أمرا مستعصيا على الاستقلال عن غيرها من العلوم المادية والإنسانية على حد سواء. وقد يتعدى ذلك إلى المجالات الفلسفية والتصورية عن الحياة والوجود وعلاقة الإنسان بالكون عندما نبحث في موضوع أخلاقيات العمل البيئي، والتربية البيئية، والحفاظ على الموارد وغيرها. ورغم كل هذا فقد تمكنت العلوم البيئية من تبني بل وإنتاج مصطلحات خاصة بها تفرض على كل متناول أن يقف عندها ويستفيد من دلالاتها بالقدر الذي يسمح به تخصصه، ويتكيّف مع مستوى استجابتها لما يطرحه من إشكال. ويعتبر البحث المصطلحي أهم مدخل لفك مشاكل التداخل القانوني والمؤسساتي والقطاعي في تدبير شؤون البيئة والذي صار أبرز مواضيع الساعة على الصعيد العالمي في هذا الشأن.

إن ما نود عرضه في حول إشكالية المصطلح في العلوم البيئية ليس من قبيل ما يتسع لتقديم نتائج البحث المصطلحي الذي يضع مصطلحات مقابلة لما هو مستعمل أو وافد في مختلف الميادين المرتبطة بالبيئة، أو اقتراح مصطلحات جديدة لمفاهيم جديدة اقتضتها آفاق التطور العلمي، ولكننا سنكتفي بهذه المناسبة بالوقوف عند أمرين أساسيين:

- الأول يتعلق بالإشكالات التي يطرحها المصطلح البيئي من سعة في المفهوم وتداخل أو تكامل مصطلحي بين مختلف فروع العلوم البيئية وانعكاس ذلك على تدبير البرامج والسياسات البيئية.
- الثاني يتعلق بالبعد الحضاري للمسألة المصطلحية في مجال البيئة ومايمليه من ضرورات البحث والتأصيل لرد معالم الشهود الحضاري للأمة إلى نصابها واستعادة الإمامة العلمية تصورا وبحثا وتطبيقا وعرضا للنماذج.

فالإشكال إشكالان واقتحام عقبة كل منهما ليس بالسهل اليسير. فالأول يستوجب امتلاك الإبداع العلمي لتحقيق الاستقلال المفهومي المطلوب والتفوق الدلالي التابع للتفوق التكنولوجي الذي يلد المصطلحات ويستأثر بعقيقتها. والثاني يتطلب التصور الحضاري الواضح للإشكال البيئي عموما والذي يجعل تشخيص الظواهر وطرح الحلول ينبعان من أصل واحد يحيط بأسباب التدهور البيئي ومجالاته وسبل الخروج منه.

لقد توسع اليوم المعنى اللغوي للبيئة ليشمل اصطلاحا الإنسان وكل ما له علاقة بحياته من موجودات أرضية وفضائية من باطن الأرض إلى طبقة الأوزون وما فوقها من آفاق كونية ليشمل:

- الطبيعة الجامدة:
  - × الجمادات الصلبة للقشرة الأرضية وباطنها.
  - × السوائل من ماء وزيوت نفطية وغيرها.
  - × الغازات في الغلاف الجوي أو في باطن الأرض.
- القوى الطبيعية كالجاذبية والقوى الحرارية، والضوئية، وقوة الرياح وغيرها.
- الطبيعة الحية ومن خاصيتها الغذاء، والنمو والتكاثر وتشمل النبات والحيوان والإنسان.
- البيئة المشيدة من مبان وطرق ومطارات وموانئ ومصانع ومزارع وغيرها.

ويأتي اكتشاف النظم البيئية ليبرهن على أن البيئة ليست مجرد موجودات حية وغير حية لا يربطها رابط. إنها تدخل جميعها في نظام علاقات متداخل ومتوازن ودقيق. فالترابط الغذائي بين الكائنات الحية في السلسلة الغذائية وعلاقة كل ذلك بالتراب مصدراً ومنشأً وبالماء كوسط كيميائي تدبّ من خلاله الحياة والطاقة وعلاقة كل هذا بمصادر الحرارة والطاقة في الكون، وعمليات التحويل والإرسال الهائلة التي يعرفها الوجود البشري، يجعلنا أمام نظام معقد من العلاقات البيئية صارت موضوع اهتمام علم البيئة الذي تطور بعد أن نشأ في أحضان علم الأحياء إلى علم قائم بذاته.

ج - الإشكالات الميدانية لمصطلح البيئة

- قابلية الشمول

لقد انتقل المعنى الاصطلاحي للفظ البيئة تدريجيا من الصورة الجامدة للمنزل أو المكان بتضاريسه ونباته، وتوسع إلى البيئة الحيوانية، ثم من العناصر السائلة والغازية والضوئية والموجات الصوتية وتيارات الطاقة إلى الأنظمة والتوازنات التي تحكم كل ذلك، ثم إلى البيئة المشيدة على يد الإنسان من مدن وغيرها. وهكذا عّرف المؤتمر العالمي للبيئة الذي انعقد في استوكهولم سنة ١٩٧٢ البيئة بأنها «كل شيء يحيط بالإنسان». وعرفها غيره ببعض الإجمال أنها «الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني الإنسان».

ومنذ أن أصبح مصطلح Environment الذي استخدمه العالم الفرنسي «سانت هيلير= ST- Heliere» في سنة ١٨٣٥، دالاً به على المحيط الذي تعيش فيه الكائنات الحية، ومبيّنا الرابطة الشديدة بين تلك الكائنات الحية وبين المحيط الذي تعيش فيه، وصار هذا اللفظ في اللغة الأجنبية يعني «مجموعة الظروف والمؤثرات الخارجية التي لها تأثير في حياة الكائنات بما فيها الإنسان»، و يحمل دلالة اصطلاحية على المحيط الذي يعيش فيه الأحياء عامة والإنسان خاصة، أطلق في اللغة العربية لفظ «البيئة» اصطلاحاً على ذلك المعنى، حيث أصبح مفهوماً متداولاً بين أهلها، خصوصاً لما أصبحوا مشاركين في الفكر البيئي الحديث.

ولا يبعد أن يكون ذلك الإطلاق الاصطلاحي وقع استرواحه من القرآن الكريم في سورة لأعراف الآية ٧٤، فلما بوأ الله تعالى القوم المذكورين في الأرض، أصبحت هذه الأرض بما عليها من المقدرات الممكنة من الحياة المرموز إليها بالمقدرات السكنية هي بيئة هؤلاء القوم، وفي ذلك ملمح قوي للمعنى الاصطلاحي الذي آل إليه الإطلاق في طوره الأخير. وربما يكون ذلك الإطلاق قد استروح من بعض استعمالات للفظ البيئة في التراث تحمل حمولة اصطلاحية، وذلك مثل ما يذكر من أن ابن عبد ربه استعمل في كتابه»الجمانة» لفظ البيئة بمعنى الوسط الذي يعيش فيه الإنسان ممثلا في الوسط الطبيعي والثقافي معا».١١

إن الخطاب البيئي مهما حاولنا حصره في القضايا المادية للخلل في التوازنات البيئية فإنه ينزلق بسهولة نحو الأبعاد الإنسانية والقانونية والأخلاقية والتصورية للحياة ومسؤولية الفرد أمام نفسه ومجتمعه ومستقبل الأجيال اللاحقة. والأمر له صلة بنمط الاستهلاك وطبيعة الإنتاج ووسائله والشره في الاقتناء والرغبة في الغنى السريع على حساب الآخر، فتستنزف الموارد وتجمد القوانين وتنتهك الأعراف على المستوى المحلي والدولي. ويعد رفض بعض الدول التوقيع على معاهدات التحولات المناخية أو التنوع البيولوجي خير دليل على عمق الإشكال البيئي وصعوبة تدبيره.

وهكذا فإن قضية المصطلح البيئي لا يمكننا أن نضعها فقط في دائرة العلوم المادية بل أيضا العلوم الإنسانية والعلوم الشرعية على السواء. لقد ظهرت اليوم التربية البيئية وعلم النفس البيئي، وأخلاقيات العمل البيئي والحركات والأحزاب والجمعيات البيئية وصار لمبادئها وقع على الساحة الدولية. وهكذا فإن أي تناول مصطلحي جاد لقضايا البيئة لا يمكنه أن يتم إلا في إطار الشمول التصوري الحضاري بكل أبعاده، ولعل هذا ما جعل بعض العلماء المهتمين بالفكر البيئي الإسلامي يضعون حماية البيئة ضمن مقاصد الشريعة الإسلامية.١٢

- التداخل الدلالي بين البيئة والتنمية

ويعاني أيضاً أمر البيئة والتنمية في جل القطاعات، خصوصا تلك التي لها صلة مباشرة مع الوسط الطبيعي، من التداخل العضوي بين الاهتمامات البيئية والتنموية. وقد ظهرت في هذا الشأن مدارس تتناول بالبحث إمكانية الحفاظ على البيئة دون المساس بمعدلات النمو المألوفة أو المطلوبة لدى الدول والمؤسسات الصناعية الكبرى على الخصوص.

وأثار تأسيس وزارات للبيئة جدلا حول الاختصاصات مما جعل بعض الدول كفرنسا تتخلى عنها ثم تعود إليها بعد سنوات، وهناك من صاغ عبر أشكالاً جديدة كالهيئات والوكالات الوطنية للبيئة. والمغرب مثلاً لم يعرف وزارة بيئة إلا سنة ١٩٩٥ بعد أن تقلبت إدارتها منذ السبعينيات بين مديرية أو كتابة دولة تابعة لغيرها.

ويعاني تدبير البرامج والسياسات البيئية أيضاً من ضعف التنسيق بين وزارة البيئة في كل بلد والوزارات المعنية بالمجال البيئي. فلو نظرنا مثلاً إلى تحسين جودة المياه فهو هاجس بيئي موزع بين اختصاص وزارة التجهيز، والمكتب الوطني للماء الصالح للشرب، ووزارة الفلاحة والمياه والغابات ووزارة الصحة، والبلديات. وأمام هذا صارت كل وزارة تطور الجوانب البيئية في نشاطها لاعتبارات سياسية أو مالية من جهة، وحفاظا على صلاحياتها من جهة أخرى. و طفَت على السطح مصطلحات بيئية خاصة بكل طرف لتعبر بيئيا وبشكل منفصل عن كل نشاط تعمير وتنمية كان معروفا قبل الموجة البيئية الحاليّة.

د- الأبعاد الحضارية للمصطلحات البيئية

ترسيخ المصطلح الوافد: إن الإشكال البيئي عرف أسرع عملية عولمة على المستوى القانوني والمؤسساتي والسياسي. وانعكس ذلك على عملية الاستيراد المصطلحي حيث انهالت المحافل العلمية الغربية على أجود ما يعبر عن البعد البيئي داخل كل العلوم المادية والإنسانية في عملية تعميم تدعمها مقتضيات المعاهدات الدولية، وتم لف ذلك في مصطلحات واسعة الدلالة كالتدهور والانقراض، الكارثة، الحماية، الحفاظ، التقييم البيئي، التوعية، المعالجة، التوازن، الخلل، وغير ذلك من الكلام الحق الذي يصلح أن يراد به غيره في أي وقت. هذا في الجوانب النظرية والفلسفية وما يتصل بالعلوم الإنسانية، أما في مجال البحث المخبري والإنجازات الميدانية حيث الريادة العلمية واضحة فإننا لا ندعي أن نتوق إلى أفضل مما عليه الأمر اليوم من ضرورة المتابعة العلمية الجادة وحسن اقتناء النماذج ونقلها بناء على الخصوصيات المحلية لكل بلد ولثقافته.

- سيادة تصوّر الآخر للكون والحياة: إن الإنسان يكتشف تدريجيا أن الكون بكافة مكوناته من جماد وحيوان ونبات وإنسان هو كل متكامل مترابط في تكوينه ووظائفه يخدم بعضه بعضا لتحقيق استمراره في التوازن والوجود. وموطن الخلل يأتي من علاقة الإنسان بباقي أطراف الوجود البشري في معركة التنمية التي يخوضها. ولهذا صار اليوم هاجس فقدان التوازنات ومعها أزمّة التمكين في الأرض وصلاحها للعيش تغذيه رغبة دفينة في أن يعمّر الإنسان النوع أطول مدة ممكنة فوق هذا الكوكب «ومنهم من يود لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر».

وهكذا بحث الناس عن مصطلح يأتي استجابة لمفهوم الرغبة في دوام الشيء المستخلف فيه بالإبقاء على وجوده الطبيعي وصبره على التوازن داخل مؤثرات محيطه رغم الخلل النسبي الذي يلحق بعلائقها من جراء الاستعمال البشري. ونحن نعلم أن النظرة إلى طبيعة الشيء وأسباب دوامه من الناحية التصورية متباينة من أمة إلى أخرى ومن عقيدة إلى أخرى. فكان مصطلح «الاستدامة» و«التنمية المستدامة» Sustainable development)) أهم ما توصل إليه الاجتهاد في موضوع السعي لتمديد فترة الرخاء في الأرض بإطالة عمر مواردها.

إننا عندما نخاطب مثلا المواطن العادي في برامج التوعية أو التربية البيئية ونطرح معه مصطلح «الاستدامة» فإن السؤال الكبير الذي يقفز إلى ذهنه في ظل الأزمة التي تعيشها الأرض اليوم هو: لفائدة من نستديم؟ أو لفائدة من أحافظ على

الموارد؟ إن الموارد على وجه الأرض اليوم ينادى باستدامتها حفاظا على بذور الحياة ودعائم إمكانية العيش البشري في مختلف القارات، للإبقاء على أسس ملك مستقبلي يملك زمامه غيره، ويخطط للتمكن منه والتحكم في موارده الطبيعية والبشرية والثقافية وعولمة استغلاله.

- غياب مصطلحات الذات: إن مراجعة تاريخ المصطلح البيئي عبر الوجود البشري يعود بنا إلى أول بلاغ في الموضوع صدر عن الملائكة قبل استخلاف الإنسان واستعمل فيه مصطلح «الفساد في الأرض». فكان معبرا في شمول عن كل ما قد يصدر من الإنسان من آثار سلبية على بيئة الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وسفك للدماء وغير ذلك. وجاءت طبيعة الجواب من صميم إطلاق الأسماء على مسمّياتها وأهميتها في تأطير وظيفة الاستخلاف، فكان بيانا مصطلحياً سلَم بعده الملائكة باستحقاق آدم لذلك بعد أن علّمه الله الأسماء كلها.

وتستمر معالم المعركة المصطلحية في أول لحظات الاستخلاف البيئي للإنسان حين ينفذ عدوه إبليس إلى مكامن نفسه ويحرك حوافزها باستعماله لأبلغ مصطلح يغوي به آدم وهو مصطلح «الخلد»: «قال هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى»، وهو ما يصطلح اليوم عليه بلفظ «الاستدامة».

كل هذا يملي على مصادر وضع المصطلحات، ضرورة اختيار تلك التي تحدِث الوقع النفسي والتصوري الأكثر تحفيزا على الفعل التنموي داخل الوسط البيئي، سواء بالحفاظ على الموارد وحسن تدبير المستغل منها أو بمعالجة نفايات كل ذلك.

وإذا كانت التنمية هي حصيلة ونتاج أعمال البشر، وكل عمل له حافز اقتصادي واجتماعي أو ثقافي، وله وسائل تقنية تنفيذية وله موارد تستغل فيه، وله قصد ونية تحكمه، وله تشريعات وقوانين تؤكده، فإن خير موطن للتأثير فيه هي حوافز اللغة والانتماء والثقافة والمعتقد.

- الحرب المصطلحية وضرورة التحصين: إن الصراع على موارد الأرض اليوم قد استصدر مصطلحات مبهمة واسعة المفهوم، تنتهك باسمها الحدود والأموال والأعراض وإنسانية الإنسان نفسه ويصعب الرد عليها لضمور دلالتها الواضحة في الأعراف الدولية حيث صار معناها يشمّ ولا يفهم، ويجعل الجميع يخرس أمام مكيال معانيها رغبة في الخلود المستدام إلى الأرض في ظل الهيمنة المصطلحية المستدامة للمختبرات اللغوية للثقافات المهيمنة في عالم التكنلوجيا والاقتصاد والسياسة.

ويعد مجال البيئة أخطر مجال يمكن ترشيحه مستقبلا لاستصدار مصطلحات جديدة تسمح بالهيمنة باسم مقاييس السياحة الدولية، أو الحفاظ على التنوع البيولوجي أو مستوى تلويث المجالات الطبيعية المشتركة دوليا، أو ربما التدخل دفاعا عن الحقوق البيئية للشعوب كما يدافع اليوم عن حقها في الكلام والتصويت. وتثبت الدراسات الاستراتيجية أن النزاعات البيئية بين الدول ستعرف تصاعدا بسبب المياه الجوفية والأنهار والسدود الحدودية، وتداخل مكوّنات المجال البري والبحري والجوي على السواء، وعدم قدرة الوفاء بالتزامات المعاهدات الدولية في هذا الشأن.

خاتمة :

وختاما نقول إن الصمت عن التشويه الوراثي للنّسل في عالم الخطاب، يعد أكبر جرما من الصمت عن المختبرات المعروفة والسرية للهندسة الوراثية التي تعيث فسادا في خلقة النوع البشري و طعامه من نبات وحيوان، وليست قضية الاستنساخ البشري سوى أحد مظاهرها التي طفت على السطح في السنوات الأخيرة. إن المصطلح البيئي له خاصية الشمول التصوري والسعة في المفهوم والعالمية، بل أكبر من هذا كله له خصوصية الكونية واستصحاب الوجود البشري عبر دنياه إلى آخرته في عملية الاستخلاف على الأنواع الأخرى وما يتبع ذلك من حساب وجزاء بيئي. وهو في حاجة إلى بحث جاد ومسح أولي لإشكالياته قصد السير به نحو الشمول العلمي والتصور الحضاري المطلوب، ليفي بأغراض التنمية المستدامة في ظل تعدد اللّغات والثقافات.

الهوامش

١ تقرير برونتلاند « مستقبلنا المشترك» إعداد : اللجنة العالمية للبيئة

والتنمية، ترجمة محمد كامل عارف، مراجعة. علي حسين حجاج، ٢٠٠٧.
٢ قضايا البيئة من منظور إسلامي، عبد المجيد النجار، الشركة الحديثة للطباعة-قطر، ١٤١٩هـ١٩٩٩م.
٣محمد عبد الستار عثمان، « المدينة الإسلامية» سلسلة عالم المعرفة : ١٢٨) ذوالحجة ١٤٠٨ هـ / غشت ١٩٨٨م.
٤ ميشال لامي: مدخل إلى البيئة البشرية، ص:١٥
٥ ميشال باربو « مذكرة حول واقع البيئة بفرنسا» مجلة رسالة البيئة ١٩٨٤ عدد ١٥
٦ د.نزار دندش، البيئة ومشكلاتها من منظور إسلامي ،مجلة المنهاج، العدد ١٤ ص ٢٣٤
٧ د. نزار دندش، البيئة ومشكلاتها من منظور إسلامي ،مجلة المنهاج، العدد ١٤ ص ٢٣٤
٨ راجع : ابن منظور – لسان العرب : مادة/بوأ،
٩ القرآن الكريم وتلوث البيئة، محمد عبد القادر الفقي، ط.١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٥م، مكتبة المنار الإسلامية – الكويت.
١٠ د. محمد أمين ، مجلة المنهاج، عدد ١٤ ص: ٢٢٦
١١ قضايا البيئة من منظور إسلامي، النجار/ ص: ٢٠
١٢ د. عبد المجيد طريباق «منظور الإسلام للمحافظة على البيئة» منشورات وزارة الأوقاف،٣٦٠ صفحة، المغرب